المحاضرة الثانية: حضارة مصر الفرعونية: الكتابة، الأدب والفنون

تمهيد يقسم المؤرخون تاريخ الإنسانية إلى عصور، فهناك عصر ما قبل التاريخ، والعصور التاريخية.

مفهوم عصر ما قبل التاريخ

ما قبل التاريخ المصري هو عصر طويل – يقدره المؤرخون بمئات الألوف من السنين – يسبق معرفة الإنسان الأول للكتابة. إنسان ذلك العصر لم يكن يسجل أفكاره أو أعماله بأي شكل من الأشكال، وإنما ترك آثاراً صامتة من الأدوات والأسلحة الأواني وبقايا المنازل والمقابر وغيرها.

فالكتابة إذن تعتبر الحد الفاصل بين عصر ما قبل التاريخ والعصر التاريخي. والعصور التاريخية تبدأ باختراع الإنسان للكتابة، وبدء تسجيل ما قام به من نشاط، وما مر به من أحداث. وتقاس أحداث التاريخ بالسنين والقرون، ويلاحظ أن حساب السنين قبل ميلاد سيدنا "عيسى المسيح" عليه السلام يسير باتجاه (تنازلي) يتناقص فيه عدد السنوات، أما بعد الميلاد، فإنه يسير في اتجاه (تصاعدي) يتزايد فيه عدد السنوات.

"بلغت حضارة وادي النيل مبلغا حضاريا مذهلا، وخلفت آثارا ما زالت حتى اليوم تحير العلماء، وتدفعهم لإصدار العديد من النظريات حولها"[1].فما هي العوامل التي ساعدت على ذلك؟.

أ – العوامل الطبيعية

1– نهر النيل وفضله العظيم: "مصر كما قال أبو التاريخ هيرودوتس هبة النيل"[2] ساعد نهر النيل على تحول مصر إلى جنة خضراء، والنيل علّم المصريين بناء السفن، فساعد على ترابطهم، وتبادل المحاصيل ونشاط التجارة. النيل علم المصريين الزرع والحساب، والنظام، وشق الترع، وبناء الجسور وتشييد السدود. لقد وجد المصريون القدماء في نيلهم المعلم، ومصدر الحياة الأولى، فعظموه وقدسوه، وعبدوه في شكل إله أسموه "حابى"، ومازلنا نحتفل بعيده وفاء النيل كل عام.

لقد ترك لنا المصريون القدماء الكثير من النصوص التاريخية التي تدل على أهمية نهر النيل في حياتهم. وعن أثر نهر النيل في حياة المصري القديم، يقول أحد هذه النصوص: "سلام عليك

[1]– محمد خريسات وآخرون، تاريخ الحضارة الإنسانية، مؤسسة حمادة ودار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 1999، ص 87.

[2]– شارل سنيوبوس، تاريخ حضارات العالم، تر: محمد كرد علي، الدار العالمية للكتب والنشر، ط1، 2021، ص 11.

أيها النيل ... الذي يحيى بمائه أرض مصر وما عليها من مخلوقات ونباتات، سلام عليك يا رب الخير ... يا من يروى الصحراء بنداه. إن أبطأت اضطربت القلوب وهلكت الأرواح، وإن أسرعت طابت النفوس وتفتحت الأزهار ."...وعن مكانة نهر النيل فى نفوس المصريين، يقول نص آخر: "مرحى يا "حابى "أنت يا من ظهرت على الأرض لكي تعطى الحياة إلى مصر، أنت يا من تأتى مستخفياً لكي تعطى الحياة لكل ظمآن... "سلام عليك يا رب الخيرات"

2- الموقع الجغرافي الممتاز: لمصر موقع جغرافي ممتاز، فهي ملتقى قارتين كبيرتين هما إفريقيا وآسيا، وهى تطل على بحرين مهمين هما البحر الأحمر والبحر المتوسط ومصر بمثابة القلب من العالم القديم، وحلقة الاتصال بين أقطاره وشعوبه. أيضاً تتمتع مصر بحماية طبيعية، ففي الشمال البحر المتوسط، وفى الشرق والغرب والجنوب تمتد الصحراوات الواسعة التي كانت دروعاً واقية ساعدت المصريين على الدفاع عن بلادهم ومقاومة المعتدين والطامعين في خيراتهم.

3- المناخ المناسب: وهب الله (سبحانه وتعالى) مصر مناخاً معتدلاً وشمساً مشرقة، وسماء صافية، وهواء عليلاً، فساعد ذلك على نشاط الإنسان وتيقظ عقله، كما أن جفاف مناخ مصر ساعد على حماية آثارها القديمة.

4- وفرة الموارد الطبيعية (الصخور والمعادن)**:** في أرض مصرنا العزيزة يوجد الذهب والنحاس والحديد والفضة وغيرها من أنواع المعادن، كما تتنوع بها الصخور من جرانيت ورخام وأحجار كريمة، ومن هذه الصخور والمعادن صنع المصريون القدماء كل صناعاتهم، وبنوا أهراماتهم، ونحتوا تماثيلهم، وصنعوا حليّهم البديعة، فكانت الصخور والمعادن بالنسبة للمصري القديم أغلى الثروات.

ب – العوامل البشرية

العمل الإيجابي والكفاح المتواصل: أحسن المصريون القدماء استخدام هذه العوامل جميعاً، واستفادوا منها، وفكروا وابتكروا، وبذلوا كثيراً من الجهد، وساد بينهم التعاون حتى حولوا واديهم إلى جنة.

وبذلك تكون الحضارة المصرية القديمة نتيجة التفاعل المبدع بين طبيعة الأرض وطبيعة الشعب الذي سكنها، فمصر ليست "هبة النيل "كما قال المؤرخ الإغريقي "هيرودوت" منذ آلاف السنين، بل هي أيضاً نتيجة لجهد المصريين واجتهادهم، وذكائهم، وابتكارهم، ووحدتهم،

وتضحياتهم. إذن "مصر هبة النيل والمصريين"، ولولا كفاح المصريين لما ظهرت هذه الحضارة العظيمة.

عصور الحضارة الفرعونية

"قال كاهن مصري لهيرودوتس: "أنتم معاشر اليونان أطفال، وهذا يعني أن المصريين كانوا يعتبرون أنفسهم أقدم شعوب العالم" فقد قامت ست وعشرون سلالة ملكية إلى عهد الفتح الفارسي سنة 520 ق. م ترتقي أولها إلى أربعة آلاف سنة"[1]. وأهم هذه السلالات.

لقد ساعدت الوثائق التي خلفها المصريون القدماء في ضبط أدوار التأريخ في حضارة وادي النيل منذ بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد فما بعد. أي منذ بداية العهد التاريخي الذي يبدأ بظهور المملكة المصرية التي وحدها "مينا" وهو الذي يعزى إليه تأسيس أول سلالة مصرية حكمت مصر.

وقد قسم المؤرخون السلالات التي حكمت مصر من أول سلالة إلى نهاية التاريخ المصري إلى31 سلالة، ونظرا لكون نهاية كل سلالة لا تتميز بتغيرات بارزة عن غيرها، فقد رأى الباحثون تقسيم التاريخ المصري القديم إلى ثلاثة عصور كبرى هي: عصر المملكة القديمة – عصر المملكة الوسطى – عصر المملكة الحديثة ويشمل هذا العصر (الإمبراطورية المصرية).

أ- عصر المملكة القديمة ويشمل هذا العصر مرحلتين:

1- بداية السلالات من (3100 إلى 2780 ق.م)السلالة الأولى، والسلالة الثانية.

2- عصر الأهرام من أو عصر بُناة الأهرامات (2780 إلى 2270 ق.م) السلالات من الثالثة إلى السادسة.

كان سكان مصر في القديم عبارة عن قبائل متفرقة، إلى أن استقرت على ضفاف النيل، وتجمّعت هذه القبائل في شكل إمارات، ودويلات مدن كثيرة منتشرة في كل من مصر العليا و مصر السفلى. مملكة شمالية. ومملكة جنوبية، وكان الاسم المصري القديم للعاصمة الجنوبية " نخين "أو " نخيت . "وعاصمة مملكة الشمال " منفيس ."وكانت مملكة الشمال أكثر تقدّما في الحضارة من مملكة الجنوب. و ظهر ملك قوي من مملكة الجنوب هو الملك" مينا الذي "نجح في توحيد المملكتين في مملكة متّحدة عاصمتها" منفيس "سنة 3200 ق.م

[1]- شارل سنيوبوس، تاريخ حضارات العالم، تر: محمد كرد علي، ص13.

وشهدت مصر تقدماً في جميع نواحي الحياة، كما تطور استعمال الكتابة المصرية القديمة التي سماها الإغريق "الهيروغليفية". هكذا أصبحت مصر مهيأة لاستقبال عصر جديد، هو عصر الدولة القديمة، والذي يضم الأسرات (3–6).

بناء الأهرامات والغرض منه

يطلق المؤرخون على عصر الدولة القديمة اسم "عصر بناة الأهرام"، إشارة إلى تلك الأهرامات الضخمة التي نراها جميعاً، والتي بنيت في بطن الصحراء عن يمين الوادي، من إقليم الفيوم جنوباً إلى الجيزة شمالاً. و ترجع الفكرة في بناء الأهرامات إلى اعتقاد المصريين القدماء في خلود الروح، وإلى اعتقادهم في البعث مرة أخرى وبوجود حياة أبدية. لهذا بنى المصريون القدماء مقبرة حصينة توضع فيها الجثة بعد تحنيطها، وتزود بمجموعة كاملة من حاجيات الميت كالأدوات وقطع الأثاث وأنواع الأطعمة والشراب التي كان يستعملها في حياته، حتى إذا ما جاءت الروح وحلت في الجثة، عاد الإنسان إلى حياته الأبدية، ونقشت جدران المقبرة بالمناظر المعتادة، لتدخل السرور عليه.

أحوال البلاد في هذا العصر

كانت مصر على جانب كبير من الخير والرخاء، وكان الأمن سائداً وحياة الناس هادئة مستقرة. وازدهرت الآداب والعلوم والفنون، وتقدمت الرحلات على أيدي الرحالة من أبناء مصرنا العزيزة. كما قامت حركة بناء ضخمة، وذلك بفضل ما توافر لمصر من ثروات طبيعية. وهكذا عاشت مصر أزهى عصورها في عصر الدولة القديمة، هذا العصر الذي اجتمع فيه نشاط الفكر إلى جانب نشاط العمل والتنفيذ.

ب – المملكة الوسطى 2100إلى 1788 ق.م

ويشمل السلالتين الحادية عشرة، الثانية عشر، دام عصر الأهرام ما يقارب خمسة قرون.كانت المملكة المصرية خلاله موحّدة تدور إدارتها على سلطة الفراعنة المركزية، يساعدهم موظفو البلاط، وكانت طبقة النّبلاء، والأمراء كذلك تقوم عليها إدارة الدولة، ولكنّ النّبلاء

استقلّوا في أواخر عصر الأهرام فانتقلت المملكة من السلطة المركزية إلى حكومة لامركزية، استقلّ فيها حكّام المقاطعات من النّبلاء بأقاليمهم، فعاد الحال في مصر إلى ما كان عليه قبل عصر الأهرام، حتى أنّه لم تنته السلالة السادسة إلاّ و البلاد في فوضى ضاربة، فحلّ عهد مظلم دام

170عاما من السلالة السابعة إلى العاشرة، تجزأت فيه البلاد إلى أقاليم و دويلات يحكم فيها أمراء مستقلّون، ولم يكن للملوك من الحكم سوى الاسم.

وقد كان هؤلاء النبلاء في حروب مستمرة من أجل بسط سلطان مدنهم، واستطاعت مدينة "طيبة "أن تُخضع في آخر الأمر معظم المدن، وتبسط سلطانها على سائر القطر المصري، وظهر فيها ملوك حكموا جميع البلاد، وضموها في مملكة واحدة، فبدأ عهد المملكة الوسطى 2100 ق. م وهي المملكة الموحدة القوية بعد المملكة القديمة .وازدهرت في هذا العهد سلالتان هما الحادية عشرة، والثانية عشرة، وقد خلّفت السلالة الثانية عشرة آثارا كثيرة ولا سيما في المعابد الشهيرة للإله "أمون "في" الكرنك"، وللإله" رع "في مدينة الشمس، وكان عهدها عهد سلم ورخاء، واتحاد في مصر .وقد عمل ملوكها على تحديد حدود الولايات، وتحديد سلطات النبلاء.

ووضع أسس الإدارة والحكومة. وممن اشتهر من ملوك هذه السلالة أمينمحيت "و"سنوسرت " لكن وفي عهد الأسرة الثالثة عشرة تعرضت البلاد إلى غزو الهكسوس وهم قوم رعاة جاءوا من آسيا وبذل المصريون مجهودات متواصلة لطردهم من بلادهم حتى تم تحرير مصر منهم على يد القائد المشهور" أحموسة "الذي كون سلالة جديدة هي السلالة الثامنة عشرة.

ج- المملكة الحديثة من 1573 إلى 1085 ق.م

ويشمل السلالة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين. لقد خلقت حرب التحرير التي شنها المصريون على الهكسوس روحا قوية، فلم يكتف ملوك السلالة الثامنة بطرد الأجانب من مصر بل لاحقوا فلولهم إلى سوريا، وحاربوهم هناك . فاستطاع أحد ملوك السلالة الثامنة عشرة وهو "طوطمس الثالث "أن يقضي على قوة الهكسوس نهائيا في بلاد الشام . وبدأ عهد جديد من العصور المهمة في تأريخ مصر من حيث القوة، والبأس، والثروة وقد دامت الامبراطورية خمسة قرون من قيام الملك أحموسة الأول إلى مجيء الفرعون" حاريحور."

ولكن دبّ الانحلال، والضعف في الامبراطورية منذ نهاية السلالة التاسعة عشرة التي أسسها رعمسيس الأول"، وقضى ابنه" سيتي "معظم حُكمه في الحروب .وانحطّت مصر في أواخر السلالة التاسعة عشرة، ولكن" رعمسيس الثالث "مؤسس السلالة العشرين أعاد إلى مصر قوتها نوعا ما. وسرعان ما انهارت مصر بعد موته، وانتهى العهد الجديد بعودة الانقسام في المملكة المصرية . ومن ثم تعرضت للاحتلال الآشوري في القرن السابع ق.م . والاحتلال الفارسي، والبطالمة، ثم

الاحتلال الروماني من سنة 30 ق.م إلى سنة 640 م، حيث تمكن عمرو بن العاص من فتح مصر سنة 640 م 18 هـ.

مظاهر الحضارة الفرعونية

1- نظام الحكم ويعتمد نظام الحكم على أسس ثلاثة:

أ – الفرعون: وهو رئيس الدولة والكاهن الأكبر، ورئيس القضاة ورئيس بيت المال، وقائد الجيش، فهو رأس المجتمع والدولة في مصر القديمة في جميع أدوار تأريخها.

ب- الوزير: لقد كان الملك مصدر الحكم والسلطة، ومن البديهي تعذر قيامه بإدارة شؤون الدولة جميعها، فكان يفوض في ذلك كبار موظفيه وعلى رأسهم أهم موظف في الدولة من بعد الملك وهو "وزير الملك.

ج – حكام الأقاليم: وعددها عشرون إقليما، أو ولاية وكان على كل منها والٍ يساعده موظفين، وهو صورة مصغرة للفرعون.

2-الجيش: أنشئ أول جيش نظامي في مصر حوالي سنة 3200 ق.م .وقد كان ذلك بعد توحيد الملك "مينا " لمصر، فقبل ذلك العام كان لكل إقليم من الأقاليم المصرية جيش خاص به يحميه. وباتحاد الأقاليم أصبح لمصر جيش موحد تحت إمرة ملك مصر، ويتكون الجيش المصري من:

أ- الجيش البري :المشاة والعربات التي تجرها الخيول، والرّماحين، والفروع الأخرى.

ب- الأسطول الذي كان يحمي سواحل مصر البحرية كلها، إضافة إلى نهر النيل.

3- الحياة الفكرية والثقافية

أ – **الكتابة:** توجد ثلاثة أنواع متميزة من خطوط الكتابة في حضارة وادي النيل . وهي بحسب ظهورها التاريخي:

1- الخط الهيروغليفي: وهو الخط المقدس الذي كان أقدم أنواع الخطوط المصرية القديمة. حيث يجده المرء في المآثر التي خلفتها تلك الحضارة .ويحسبه نوعا من الزخرفة، والزينة الصورية.

2- الخط الهيراطيقي: ومعنى اسم هيراطيقي" كتابة أو خط الكهنة ."ومنشؤه التاريخي من تبسيط الخط الهيروغليفي واختصاره.

3- الخط الديموطيقي: ومعنى اسم هذا الخط" خط العوام أو الجمهور "ومنشؤه التاريخي من

تبسيط الخط الهيراطيقي.

ب- العمران والنحت

لقد قطع المصريون شوطا عظيما في فن النحت والعمران، فأهم المنشآت التي شيدت التماثيل الجميلة والمصاطب والأهرامات وهي تمثل العمائر الجنائزية وأول هرم بنى في مصر هرم زوسر ثم هرم ميدوم وتعد أهرامات الجيزة الثلاثة التي أقيمت في عهد الأسرة الرابعة أشهر الأهرامات وأهمها في مصر الفرعونية كذلك تمثال أبو الهول الذي تتجلى فيه قدرة الفنان المصري على الإبداع.. وتبلغ الأهرامات التي بنيت لتكون مثوى للفراعنة97 هرما .

كما شيدت القلاع والحصون والأسوار على حدود مصر الشرقية ويعتبر عصر الدولة الحديثة أعظم فترة عرفتها أساليب العمارة والصور الجدارية والحرف والفنون الدقيقة التي تظهر على حوائط بعض المعابد الضخمة المتنوعة التصميمات كالكرنك والأقصر وأبو سمبل ويعد عهد تحتمس الأول نقطة تحول في بناء الهرم ليكون مقبرة في باطن الجبل في البر الغربي بالأقصر تتسم بالغنى والجمال في أثاثها الجنائزي ويظهر ذلك في مقبرة الملك توت عنخ آمون وقد عمد فنانو هذه الدولة – للحفاظ على نقوش الحوائط – إلى استخدام الحفر الغائر والبارز بروزا بسيطا حتى لا تتعرض للضياع أو التشويه.

وآخر ما اكتشف من مقابر وادي الملوك مقبرة أبناء رمسيس الثاني التي تعد من أكبرها مساحة وتحتوى على 15مومياء، أما المسلات الفرعونية فقد كانت تقام في ازدواج أمام مدخل المعابد وهي منحوتة من الجرانيت ومن أجمل أمثله عمائر عصر الإمبراطورية المصرية القديمة معابد آمون وخوفو بالكرنك والأقصر، والمعابد المنحوتة في الصخر مثل أبو سمبل الكبير وأبو سمبل الصغير.

ج- العلوم والمعارف

نشأت العلوم والمعارف في حضارة وادي النيل منذ أن انتقل الإنسان إلى طور الحضارة وكانت بذورها تمتد إلى ما قبل ذلك إلى الأزمان التي تعلّم فيها الإنسان الزراعة وصناعة الفخار، واستعمال المعادن. وأخذت المعارف العلمية تنضج بالتدريج، ولما نشأت الكتابة، واتسع استعمالها في شؤون الحياة المختلفة منذ عصر الأهرام، بدأ القوم في تدوين هذه المعارف كالرياضيات، والطب، وبعض الصناعات الكيماوية، والفلك، وملاحظاتهم العامة عن الحياة.

د- الحياة الدينية

يقول هيرودوت "إن المصريين من أشد البشر تدينا، ولا يعرف شعب بلغ في التقوى درجتهم فيها فإن صورهم بجملتها تمثل ناسا يصلون أمام رب وكتبهم على الجملة أسفار عبادة وتنسك"[1].

الأرباب المصرية: (رب الشمس) رأس الأرباب (الآلهة) عندهم وهو الخالق العليم الكائن منذ البدأ له امرأة وابن عريقان مثله في الربوبية، وكان المصريون يعبدون بهذا التثليث الذي تختلف أسماؤه، وإن اتحدت مسمياته، فكان أهل كل إقليم يسمي هذه الأسماء الثلاثة باسم يختلف عن الآخر، ففي إقليم منفيس سمي الأب فتاح والأم سيخت والابن إيموس، وفي أبيدوس موها أوزيريسإيزيس وهوروس ، وفي ثيبة عمون وموت وشونس، ثم اختار أهل كل إقليم أرباب الأقاليم الأخرى[2]...

وقد مثل المصريون أربابهم في صورة آدمية تارة، وعلى شكل بهائم تارة أخرى، ولكل رب حيوانه، فيتجسد فتاح في الجمل، وهوروس في الباشق، وأزوريس في النور وتختلط الصورتان طورا في إنسان رأسه رأس حيوان، أو في حيوان رأسه رأس إنسان...[3]

هـ- الأدب

نشأ الشعب المصري ميالا إلى الفنون ومبدعا فيها ويظهر ذلك واضحا فيما تركه المصريون من تماثيل ومسلات ونقوش وتوابيت وحلى وأثاث وأدوات مرمرية ولن ينسى التاريخ فضل المصريين على الإنسانية في اختراع الكتابة التي سماها الإغريق بالخط الهيروغليفي وتتكون الأبجدية الهيروغليفية من 24حرفا.

وقد استخدم المصريون القدماء المداد الأسود أو الأحمر في الكتابة على أوراق البردي كما اهتموا بالتعليم وفى وصية أحد الحكماء المصريين القدماء لابنه كتب يقول "وسع صدرك للكتابة وأحبها حبك لأمك فليس في الحياة ماهو أثمن منها".

---

[1]- شارل سنيوبوس، تاريخ حضارات العالم، تر: محمد كرد علي، الدار العالمية للكتب والنشر، ط1، 2021، ص 16.

[2]- المرجع نفسه، ص ن.

[3]- المرجع السابق، ص17.

وبرع المصريون في الأدب الديني الذي تناول العقائد الدينية ونظرياتهم عن الحياة الأخرى وأسرار الكون والأساطير المختلفة للآلهة والصلوات والأناشيد ومن أقدم أمثله الأدب الديني نصوص الأهرام التي سجلت على جدران بعض الأهرامات لتكون عونا للميت في الحياة الأخرى.

أما كتاب الموتى فهو عبارة عن كتابات دينية تدون على أوراق البردي يتم وضعها مع الموتى لتقيهم من المخاطر بعد الموت وقد اهتم الأديب المصري القديم بالظواهر الطبيعية التي رفعها إلى درجة التقديس فنسخ من حولها الأساطير الخالدة وخاصة حول الشمس والنيل فالشمس هي نور الإله الذي لا يخبو عن أرض مصر وهي سر الدفء والحياة والنيل هو واهب الخير لأرض مصر وهو الطريق إلى الحياة الخالدة.

كما برع الأديب المصري القديم في كتابة القصص وحرص على أن تكون الكلمة أداة توصيل للحكمة وآداب السلوك وظل المصريون حريصين على رواية تراثهم من الحكم والأمثال وعلى ترديدها بأعيادهم واحتفالاتهم وتقاليدهم.

و- الموسيقى

اشتهر المصريون في العصر الفرعوني بحبهم للموسيقى والإقبال عليها واستخدامها في تربية النشء وفى الاحتفالات الخاصة والعامة خاصة في الجيش كذلك استخدموها في الصلاة ودفن الموتى عرف القدماء التجمل بالحلي التي تميزت بالدقة الفنية العالية وجمال التشكيل واستمدت العناصر الزخرفية من الطبيعة مثل نبات البردي والنخيل وزهر اللوتس كما استخدموا الأحجار الكريمة والحلي في الزينة.